آراء النورسي حول
مذهب وحدة الوجود

د. بلال قوشبنار *

قبل ان انتقل للحديث عن تقييم سعيد النورسي حول الطرق والمذاهب الصوفية والتي تشكل قسماً كبيراً من هذه المقالة التي سزقدمها، اود ان اسرد عدة ملاحظات سعيد النورسي على انظار أهل العلم الذين وقفوا على جميع العلوم من اللغة، والفلسفة ومذهب الغموضية. إن كتاباته تضع أمام الاعين عمق قلمه وحدة ذكائه. إن أفكاره التي تشكل منبع الهام لزمانه لمثقفي اليوم وللحياة المعنوية - وبلا شك، إن هذه الاوضاع ستستمر على نفس الشكل في المستقبل بقدر مخاطبة القطاع المتعلم لها. وهذا يثبت انه مفكر و عالم إسلامي مستقل. وبالاستناد إالى اثاره، فإنني لن أهدره على أنه اكتفى بالتعلق بالاحداث والحقائق فقط، بل انني اميل لتصويره على انه اهتم بتحليل الاحداث والحقائق وإيضاحها، وأنه صاحب علم ومعرفة قدم الحلول والادوية بشكل يوافق احتياجات العصر من خلال هذه الايضاحات. وفي هذه الحالة، وحسب رأى، إن أى فكر يتشكل حول النورسي يجب ان يتناول بشكل مرتبط بحياته وشخصيته ومحيطه ووسطه التي اثرّت عليه من الأعماق بدون شك. لذلك فإن أية محاولة لتقديم شرحه الموافق لفكره المتعلق بالتصوف الاسلامي، ويجب اولاً دراسة الخطة الخلفية من اولها لآخرها في ضوء الآثار التاريخية، ثم يجب تدقيق جميع كتاباته بهذه الوسيلة الخيرة من طرف شخص يعمل في هذا المجال مثلي وهي تفوق استيعابي. لذلك فإنني اود ان اعرض أفكاره المتعلقة بالتصوف أكثر من عرض تصوير بسيط.

وإنني سأعرض بعض النواحي ذات المغزى حول الحياة الشخصية للنورسي، كنت قد اخترتها كنقطة بداية، فقد اتبع سلوكاً احترم فيه جميع المدارس الصوفية التي تتغذى من القرآن والسنة، لكنه لم يمثل اي واحد منها. وبالنسبة له إن أهم شئ هو ليس الدخول في اي طريق صوفي، بل التوصل الى الحقائق. وقد اسس هذه الخاصية باقتباس من احد اهم كلمات الإمام الرباني مجدد الألف الثاني - والذي عرفه بأنه بطل الطريقة النقشبندية وشمسها - الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٣/١٩٧١-١٦٢٤/١٠٣٤): »انني ارجّح وضوح مسألة من الحقائق الايمانية وانكشافها على آلاف من الاذواق والمواجيد والكرامات«(١). كما ان النورسي يسلم بالحقيقة التي بينها السرهندي: »ان منتهى الطرق الصوفية كافة هو وضوح الحقائق الايمانية وانجلاؤها«.«(٢)

وفي الايام التي كان يبحث فيها عن طريق للتوصل الى الحقيقة، كان كما بيّن يأسف، يقضي أوقاتاً عصيبة. وكانت تنزل على »رأسه الغافل« ضربات قوية. وهذه الاوضاع التي لا تتحمل ساقته للتفكير بحقيقة »الموت حق« والتي هي حادثه لا مفر منها. وقد عاش مرحلة تردد، بحث فيها عن طريق ومنجي يداوي مرضه النفسي هذا. وعندما كان في هذه الحالة تفاءل بكتاب فتوح الغيب للجيلاني والمكتوبات للشيخ السرهندي. وفي تفاءل الكتاب الاخير، بعد الخطاب الذي وجه ميرزا لبديع الزمان، شاهد وصية الامام الرباني التي سنذكرها ادناه »والشئ الذي دفع النورسي للاستغراب هو ذكر كلمة بديع الزمان في كل الكتاب مرتين وذكر اسم والده ميرزا معها.«:

»وحدّ القبلة، اي اتبع اماماً ومرشداً واحداً ولا تنشغل بغيره«(٣) ونتيجة هذا الإشارد خلص النورسي روحه من الوضع المتحير. وفي النهاية حصل قلبه على السكينة والطمأنينة في نقطة الحق التالية: إن أعظم مرشد للطرق الصوفية ومنبع جميع أساتذتها هو القرآن. وتوحيد القبلة الحقيقي يتم فيها. وكما بين أيضاً، ان هذه الكلمات والانوار التي جاءت جميعها من القرآن، وهي ليست قضايا تعود للعقل ومن العقل فقط، بل هي قضايا تخاطب القلب والروح بنفس الوقت ايضاً. لذلك على الذين يريدون ان يدركوا الحقائق في اي مستوي كان، عليهم ان يراجعوا اولاً وبدقة تامة وباخلاص ونية خالصة.

وبالانطلاق من مذكراته المفصلة حول المواضيع المختلفة المتعلقة بالطرق والتي تشاهد منتشرة في جيمع اطراف اعظم كتابيه الكلمات والمكتوبات، نستطيع ان نستخرج بعض المبادئ المهمة في ضوء الخصوص التي تشكل الشئ الذي استطيع ان اسميه التصوف البنّاء – الحركي.

اولاً: إن التصوف، والطريقة، والولاية والسفر المعنوي في الطريق الصوفي »السير والسلوك« هي أفكار لاقت قبولاً عاماً عند النورسي، وكل واحدة منها وبذاتها، تضم حقيقة قدسية تم تعريفها بشكل موسع في آثار أهل الكشف والذوق الذين هم مظهر للاحسان المسبق والالهام. وبتعريفه البراق الخاص به إذا تم استخدام التصوف والطريقة بمعنى تقني اكثر، يعني كمؤسسة – »سر انساني علوي« و »كمال بشري«، وهدفه الرئيسي ومقصده هو المعرفة، وسفر معنوي بقدم القلب في ظل معراج الرسول محمد ﷺ »سير السلوك الروحاني« ، ونتيجته الظهور على حقائق الايمان والقرآن بشكل ذوقي وحالي وشهودي (٤) وبتعبير آخر، إن التصوف هو في النهاية يهدف الى السياحة في الطريق المعنوي الطويل الذي يوصل الى تجلي الحقائق المبينة في القرآن، من اجل الوصول الى الكمال. وهذه السياحة كما عرفها النورسي تتحقق بواسطة القلب الذي هو »نواة ومركز تجلي حقائق الكائنات التي لا حد لها«. وبمعنى آخر إن القلب هو »الفهرست الجامع« الذي يأوي الانسان بداخله كل شئ في الكائنات. وان مفهوم الفرست الجامع« الذي يذكر بمفهوم »العالم الصغير«، يستخدم بشكل واسع بين أهل التصوف، وهو مفهوم يعطف اصلاً على علي بن ابي طالب »رضى الله عنه«. وإن فاطر هذا القلب يريد ان يشغله في قلب الانسان ويرفعه من سلوك بالقوة الى وضع بالفعل. ولأنه اراد هذا، يصير القلب كالعقل،يجب ان يعمل كواسطة للذكر الالهي فقط خلال السياحة المعنوية، وذلك حتى يتوجه الى الحقائق الايمانية.

وكي يستطيع القلب الذهاب في طريق التصوف، يضيف النورسي الى جانب ذكر الله التفكر. وبالنسبة له إن هذين العنصرين هما مفتاحي الترقي الروحاني، وذلك لانهما الي جانب الفوائد التي لا تحصى والتي يحملونها للاخرة، هما منبع الوصول الى السكينة في الدنيا. فضلاً عن انهما يكسبان الانسية والتسلي والتسلي للناس الذين يريدون ان يعيشوا حياة وحيدة بعيدة عن الناس والذين تعبوا من دغدغة حياة المجتمع وحملها الثقيل. إن اللقاءات الاجتماعية داخل حياة المدينة او الجماعة، لا تعطي انسية وصداقة وتسلياً يستمر الى الأند، لكنها تؤمن اطمئناناً عابراً. وفي هذه الحالة يقول سعيد النورسي ان الناس الذين يعيشون داخل هذه الشروط التي لا يرجحونها، يجدون التسلي الحقيقي، والانسية الجدية، والعلاقة، والذوق الحقيقي بذكر الله والتفكر. وهكذا يعرفون انهم غير وحيدين، وان الله حاضر في كل مكان، وان الحياة مع الله هي الحياة التي لها معنى.

وهناك رابطة اصلية بين النبوة والولاية، احداهما تتمم الثانية، ترى وكأنها متممتها. وبالنسبة للنورسي »الولاية حجة الرسالة؛ والطريقة برهان الشريعة«(٥). علاوة على ان الولاية لا تكتفي بادراك درجة عين اليقين بواسطة الحقائق الايمانية التي بلغتها النبوة والمليئة بالاسرار، وتفكر القلب، واستكشاف الروح، بل تقوم بتصديقها كلها. والولاية والنبوة ايضاً هما دليل وحجة الشريعة، وتقدمان الوسائط للايصال الى انوار و اسرار كمال الاسلام، وهما معدن الترقيات ومدار الفيوضات للإنسانية (٦) والا علاوة على ان خاصة الطريقة، هي اكثر الوسائط تأثيراً وخدمة في تقوية الاخوة في العالم الاسلامي الى جانب كونها من القيم العلوية المهمة ومن نتائجها المعنوية.

وفي أثناء إجابة النورسي على احد الاسئلة المتعلقة بموقع الصحابة والاولياء يشير من طرف اولاً الى الآتي: لقد اجمع اهل السنة والجماعة على ان الصحابة هم أفضل البشر بعد النبي ﷺ، وتطرح ثلاثة إيضاحات لحكمة ذلك. واود ان ابين احدها فقط وذلك لانها تتعلق بموضوعنا مباشرة. وفي هذا الايضاح الخاص، يستخدم النورسي لغة المتصوفين التي تحمل معاني عميقة، ويشبّه المشاركة بالصحبة النبوية بأنها رأس كل اكسير:

»ان الصحبة النبوية اكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالوا من انوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنيناً من عمره في السير والسلوك، ذلك لان في الصحبة النبوية انصباغاً بصبغة الحقيقة، وانعكاساً لانوارها،

اذ يستطيع المرء بانعكاس ذلك النور الاعظم ان يرقى الى مراتب سامية ودرجات رفيعة، وان يحظى بالتبعية والانتساب بارفع المقامات. مثله في هذا مثل خادم السلطان، الذي يستطيع ان يصل الى مواقع رفيعة لا يقدر على بلوغها قواد السلطان وامراؤه. ومن هذا السر نرى انه لا يستطيع ان يرقى اعظم ولي من اولياء الله الصالحين الى مرتبة صحابي كريم للرسول الاعظم ﷺ، بل حتى لو تَشرف اولياء صالحون مراراً بصحبة النبيﷺ في الصحوة، كـجلال الدين السيوطي ـ مثلاً ـ واُكرموا بلقائه يقظة في هذا العالم، فلا يبلغون ايضاً درجة الصحابة لان صحبة الصحابة الكرام للنبي ﷺ كانت بنور النبوة، إذ كانوا يصحبونه في حالة كونه نبياً رسولاً. اما الاولياء الصالحون فان رؤيتهم له ﷺ انما هي بعد وفاته، اي بعد انقطاع الوحي، فهي صحبة بنور الولاية، اي ان تمثل الرسول ﷺ وظهوره لنظرهم انما هو من حيث الولاية الاحمدية، وليس باعتبار النبوة.

فما دام الامر هكذا، فلا بد ان تتفاوت الصحبتان بمقدار سمو درجة النبوة وعلوها على مرتبة الولاية.«(٧)

ومن هذا المنظور وبالنسبة للنورسي إن سمو صحابة الرسول ﷺ على جميع الاولياء هو من جهة الوظيفة النبوية التي لا مثيل لها، ومن جهة شخصيته العلوية. ويشاهد ذلك بوضوح اكثر في السطور التالية للنص الذي اقتبسناه أعلاه.

وبعد شرح سبب وجود التصوف وأهميته بشكل محكم وبليغ، يرى النورسي نفسه مكلفاً بالاجابة على السلوك السلبي لبعض الناس المعينين والذين يعادون الطرق دوماً. ويستهدف مجموعتين من هؤلاء الناس بشكل خاص: المجموعة الاولى هي المجموعة التي سماها بالفرقة الضالة بسبب عماها تجاه انوار التصوف، وقد اتبعوا اسلوب رد وانكار التصوف كلما سنحت لها الفرصة. وبعلمها هذا لم يكتفوا بحرمان انفسهم من هذا الطريق المهم، بل تسببوا في حرمان الآخرين منه ايضاً. أما الجماعة التي اهتم بها النورسي والتي لفتت نظرة هي ليست هذه الجماعة، وذلك لأنه يمكن فهم قيام هذه الجماعة برد وانكار التصوف بسبب عماهم. والى جانب ذلك، إن الذي يؤلم، او كما عبر هو إن الجماعة التي هي اكثر »مدار للتأسف«منحصرة على بعض الناس المنتسبين الي أهل السنة والجماعة.

ويقوم النورسي بفصل المجموعتين عن بعضها داخل هذه الجماعة. وأحدها هم علماء الظاهرية الذين يكتفون بالنظر الى الظاهر، ويشكل المجموعة الثانية »أهل السياسة الغافلين«. وهاتين الجماعتين، تحتجان بسوء الاستعمال والاخطاء التي يقع بها بعض منتسبي الطريقة في نقطة تطبيق الاوامر الدينية، وبعض الآراء التي يطرحها اهل الطريق والتي لا توافق اعتقاد اهل السنة، وهم يسعون بكل جهودهم لاطفاء منبع الالهام ومصدر الحياة هذا وتخريبه. وعلى كل حال إنه من الصعب جداً وجود مسالك ومشارب ليس فيها اخطاء، لذلك يقول النورسي إن الحكم على طريقة معينة صاحبة الاحترام بالنظر الى خطأ احد منتسبيها يكون ظلماً. مع العلم ان مثل هذه الاخطاء لم تحدث من طرف أساتذة الطريقة او المريدين المتمسكين باداب و اصول الطريقة بشكل تام، بل تحدث من طرف الناس الذين لم يسلكوا الطريق والذين هم غير أهل لذلك(٨) اذاً لا يمكن جعل طريق التصوف مذنباً بسبب التصرفات السيئة والقبيحة التي يسلكها بعض الجماعات المعنية التي أخذت اسم الطريقة بشكل حاضر، والحقيقة ان هؤلاء يقعون بعيداً عن حدود الشريعة. ومن هذا المنظور، لا يمكن تعميم اخطاء»طريقة« خاصة بشكل يشمل جميع المدارس الصوفية، وهذا بشكل واضح للعيان يعدّ خطأ فادحاً.

وفي الخطوة الثانية يبدأ النورسي بتحليل الابعاد الداخلية والمراتب النفسية للطريق التصوفي. ويبين ان القيام بسيادة معنوية في الطريق التصوفي الى جانب كونها تحمل اسراراً قيمة، فهي ضيقة جداً وخطيرة. وبسبب صعوبتها التي لا حد لها، يغرق بعض السالكين في هذا الطريق، وأحياناً يخسرون، وأحياناً يرجعون ويضلون الآخرين ويخرجون الآخرين عن الطريق. والأبعد من ذلك إن هذا الطريق طويل وضيق وملئ بالمخاطر.

ثم يتابع النورسي المذاهب التقليدية لمشايخ الصوفية السابقين بشكل وثيق في هذه النقطة، ويلخص السياحة النفسية »السلوك« لأحد الرموز الذين انتسبوا للطريق التصوفي داخل استقامتين. او بتعبير آخر إن السلوك الروحاني في نظر النورسي يتحقق على شكلين:

١- السير الانفسي (السفر العمودي؛ »السير في العالم الداخلي«)
٢- السر الآفاقي (السفر الافقي؛ »السير الكوني«)

يبدأ السير الروحاني في المشرب الاول من النفس، او من انا. ويحس السالك بصره عن الحقائق الظهرة والخارجية، ينحصر في القلب. وهنا يثقب السالك الانانية، ويفتح طريقاً في القلب، وهكذا يجد الحقيقة. ثم يلتفت الى العالم الآفاقي فيشاهد عندها النور الآفاقي. وبعد ان يتم سيره يرى السالك الحقيقة التي رآها في عالمه الداخلي او في نفسه في دائرة اوسع في العالم. وكما بين النورسي إن هذا هو طريق الذين يطبقون اصول »الذكر الخفي« . وإن اهم اساس لهذه الاصول توجد في النقاط الثلاثة التالية: كسر الانانية، وترك الهوى، وقتل النفس الامارة(٩).

والطريق الثاني، يعني السير الآفاقي، يبدأ السالك سيره من العالم الخارجي، وبعد ان يشاهد تجليات الاسماء الحسنى الالهية يعود الى دنياه الداخلية، يعني يعود الى قلبه الذي شوهدت فيه انوار هذه التجليات بمقياس صغير. وبهذه المرحلة يرى القلب »مرآة الصمد« يعني يراه انه مرآة تعرف بالذات الذي لا يحتاج لشئ، وكل شئ محتاج اليه بالمعنى المطلق، وبهذا يصل السالك الى المقصد الذي يسعى اليه.

إن التصوف يأخذ الدور الثالث داخل المفهوم الكامل للاسلام عند النورسي. وإذا كانت هناك ضرورة لعرض الادوار، فهو يأتي بعد القرآن وسنة الرسول ﷺ. وقبل الدخول في التصوف او الطريقة يجب على الانسان ان يضع نفسه تحت الأمن والمحافظة من الزاوية الايمانية التي هي الطريق الوحيد لإيصال الانسان الى السعادة الابدية. وبالنسبة له لو كان أساتذة التصوف الكبار أمثال الشيخ عبدالقادر الجيلاني »المعروف باسم الغوث الاعظم، ومؤسس الطريقة القادرية ٤٧٠/١٠٧٧-٥٦١/١١٦٦«، الشاه نقشنبد »محمد بهاء الدين النقشبندي، مؤسس الطريقة النقشبندية، وفاة ٧٩١هـ /١٣٨٩م« والامام الرباني على قيد الحياة لصرفوا كل جهودهم ونشاطاتهم لتقوية وتحكيم حقائق الايمان واسس الاسلام. وذلك لأنها منبع ومدار السعادة الابدية. ورغم وجود أعداد هائلة من الناس المؤمنين يدخلون الجنة دون الدخول بالطريق التصوفي، إلا انه لا يوجد أحد يدخل الجنة دون ايمان. وفي هذه النقطة يعدّ التصوف ثمرة يمكن العيش دون تناولها ام الاسلام فهو غذاء أساسي لا يمكن العيش دونه بحكم الخبز(١٠) وقد كان سابقاً لا يستطيع الانسان التوصل الى الحقائق الايمانية الا بالسير الروحاني طيلة اربعين يوماً واحياناً طيلة اربعين سنة، والآن بالنسبة للنورسي، إذاكان هناك طريق يوصل الى هذه الحقائق خلال اربعين دقيقة بعناية الله يجب عدم إهمال هذا الطريق(١١). وعندما سُئِلَ في موضع آخر حول إعطاءه درس في التصوف ام لا، اعطى جواباً بالمعنى التالي: »إن الضروري والألزم هو الإسلام، الزمان ليس زمان الطريقة«(١٢) وبهذا الشكل يذكر انه يجيب بأنه مهتم بحقائق الايمان دوماً عندما يتهم بأنه يعطي دروساً في التصوف ويؤسس طريقة صوفية.(١٣)

الطريقة النقشبندية تطالب الإنسان في دستورها على ترك اربعة اشياء هي الدنيا والاخرى »العقبى« والوجود وترك الترك، وبعد ذلك ستجيئ الى الذهن الاشياء الاربعة التالية التي تشكل احجار الأساس لمذهب التصوف الخاص به تجاه لمذاهب الصوفية كوحدة الوجود ووحدة الشهود وغيرها وهي : الفقر المطلق، والعجز المطلق، والشكر المطلق، والشوق المطلق (١٤).

بالنسبة للنورسي ان كل حق يوصل الى القادر المطلق الذي هو الله عاجلاً ام آجلاً، وان جميع طرق الحق الحقيقية، بغض النظر عن طولها او قصرها نبعت بشكل مباشر من القرآن في نقطة الإيصال الى الله. وهذا يعني ان الطريق يكون مظهراً للقبول والحق بقدر اخذه اصوله وإرشاده من القرآن. وإذا نظرنا من الجهة التي تهم النورسي في طريقه، إن وسائط هذا الطريق تستند جميعها الى القرآن، وهذا الطريق تعبر بالنسبة أقصر واسلم. وطريقة يحتوي على اربع مراتب رقي. ونقطة البداية هي العجز. وينتقل بعدها الى مرتبتين تاليتين هي الفقر والشفقة. وفي النهاية يصل الى الذروة بالتفكر. وكل مرتبة منها يطالعها النورسي كطريق مستقل يوصل الى اسم منفصل لله او صفة منفصلة او وجهة منفصلة. فمثلاً، إن العجز يوصل الى حبه تعالى الذي وسع كل شئ؛ والفقر الكلي يوصل الى رحمته تعالى، والشفقة توصل الى شفقته المطلقة والتفكر يوصل الى حكمته سبحانه

التي وسعت كل شئ. وكما بين النورسي إنه ينفصل على الطرق الصوفية الآخرى؛ يعني يختلف عن الطرق التي لها عشرخطوات والتي تذكر الله سراً والتي سميت بالطريق الخفي او عن الطرق التي لها سبع خطوات والتي تذكر الله علناً والتي سميت لذلك بالطريق الجهري. وباختلاف طريقه عن الطرق الاخرى، يفكر النورسي ان طريقه ليس طريقاً صوفياً، لكنه اساساً حقيقة وشريعة يهدف لعرض و رؤية عجز الانسان وفقره وتقصيره تجاه الله.

إن الطريق الاصلي للنورسي، كما بينا سابقاً، أخذ منشأه وأساسه من القرآن، ويطلق خطواته الاربعة التي هي وسيلة للترقي بثبات ويسير نحو التقدم. وكل واحدة من هذه الخطى تتلخص على الشكل التالي:

الخطوة الاولى: على السالك ان لا يزكّي نفسه كما جاء في الآية الكريمة فلا تزكوا أنفسكم(١٥). ويبين انه يجب ان يظهر نفسه كما هو بإخلاص، و ان لا يسعى ان يرى نفسه اعلى مما هي عليه. وذلك لأنه كما يبين بديع الزمان ان جبلية الإنسان باعتبار الفطرة ميالة دائماً لحب الذات ومدح نفسها. واولاً وبالذات، وليس لشئ آخر، فيحب نفسه فقط، ويحبها بشكل بحيث أنه يراها بعيدة عن الخطأ والقصور، ثم يقوم بالدفاع عنها حتى لدرجة العبادة. مع العلم ان القرآن الكريم يقول: أرأيت من اتخذ الـ"هه هواهأفَرأيت من اتخذ الـ"هه هواه(١٦) إن تعظيم الانسان لنفسه دون حدود، يسوقه للثقة بنفسه فقط، ويفدي كل شئ لنفسه. لذلك على السالك ان يسعى اولاً لإدراك عجزه وضعفه.

الخطوة الثانية: يطالب الانسان ان يشعر بوجود الله عقلاً و قلباً، ويستمر بمعرفة نفسه. والآية التالية تتعلق بذلك: ولاَ تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم..(١٧) وبتعبير آخر، إن نسيان الانسان لله، هي كما فسرها النورسي، يؤدي لنسيان الانسان لشخصه، وحتى لنفسه لدرجة ما ولنفسانيته، وعلى هذا المنوال، عندما يرى الكفة والصعوبة، مثلاً عندما يرى الموت، لا يهتم به، ولا يفكر به لأجل نفسه، ويعطيه للآخرين، وعندما يرى الحظوظ والاجرة يقوم بالعكس فيأخذه لنفسه ويفكر بنفسه اولاً. والانسان ينجو من العادات السيئة الصادرة عن نفسه الامارة بالسوء بالذكر الدائم لله.

الخطوة الثالثة: السالك أكمل مخلوق، يبدأ برؤية قصوره تجاه الفاطر ذي الكمال. ويحمل جميع اوصاف الجمال الموجودة عليه لله، وجميع التقصيرات والنواقص على نفسه، ويسعى للتصرف دون اتباع مطالب نفسه الامارة. والآية التالية تعلمنا ذلك: مَا أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك...(١٨) ففي هذه المرتبة يشكر السالك الله باستمرار، وبدل ان يمدح نفسه، يبدأ بعيش حياة متواضعة بشكل تام؛ حتى كما بين النورسي بشكل واضح يجد »كماله في عدم كماله أي في »النقص« وقدرته بالعجز، وغناه بالفقر«.(١٩)

والسالك عندما يفهم الحكمة الموجودة في الآية الكريمة كل شئ هالك إلاوجهه(٢٠) يكمل سياحته، وإن فهم هذه الآية محملة بالمعاني العميقة في رأي النورسي: ستخلص الانسان من الانخداع بظاهر الأشياء، وستسهل عليه مشاهدة الأشياء بوجهها وحقائقها الأصلية. وبقول آخر، ان الشئ، كما بيّن هو ، له وجهتان. إحداها وجهة المعنى الاسمي التي تنظر له، الاخرى هي وجهة المعنى الحرفي التي تنظر الى خالق هذا الشئ. ففي الوجهة الاولى ان هذا الشئ فاني، ومفقود، وحادث ومعدوم. لكن في الوجهة الثانية فهو مثل المرآة يعكس أسماء الله وبهذا المعنى فهو شاهد ومشهود بنفس الوقت فهو موجود وواجد(٢١)والشخص الذي في هذه المرتبة يترك أنانيته تماماً، وبالتالي سيصير مقتدراً على إضافة جميع الموجودات لله. والى جانب ذلك سيرى اخيراً انه بقدر ما يرى وجود نفسه مرآة لتجلي اسماء ذات واجب الوجود، يكسب وجوداً لا نهاية له.(٢٢) وباختصار ان الطريق الذي رسمه النورسي ومشى فيه، هو كما بيناه بخطوطه العريضة أعلاه، يستند تماماً على القرآن، وأقصر من الطرق الصوفية الاخرى المشهورة نسبياً، واوسع منها واكثر سلامة و عالمية. هذا الطريق قصير لأنه يتشكل من أربع خطوات فقط. أسلم لأنه لا يترك باباً مفتوحاً للشطحات التي تُقال في حالة الوجد، وللتعابير التي تغشي نفس الانسان، والأبعد من ذلك إن النفس التي تدرك تقصيرها وفقرها ونقصها لا تسعى لتجاوز الحدود التي وضعت لها.(٢٣)

اِن أهميته خاصة للطريق المعنوي للنورسي، حسبما شاهدت، هي تفريقه للشئ كما بينا أعلاه داخل وجهتين - هذا التفريق

بشكل تقريبي ظاهري »بالمعنى الاسمي« و وجودي »بالمعنى الحرفي«. إن الطريق التصوفي الخاص بالنورسي، هو هذا التفريق الذي يقربه كثيراً من التصوف الذي قبله الغزالي. والى جانب ذلك، إنه بقدر جعله منفصلاً و مختلفاً عن وحدة الوجود لابن عربي، وهذا التفريق ايضاً يجعله يختلف بشكل قطعي عن وحدة الشهود لمدرسة الفكر الغامض التي ينتسب اليها الاستاذ أحمد سرهندي الذي يحترمه النورسي والتي هي كجواب لمدرسة ابن عربي.

النورسي شخص رجح المسير في الطريق التصوفي الذي يشكل القرآن محوره، وبعكس مدرسة وحدة الوجود، لم يجبر على تخيل الكائنات كعدم تام في درجة يبقي مجبوراً للحكم بأنه »لا موجود إلا هو«. كما انه لا يحتاج الى وضع الكائنات في »حبس النسيان المطلق« بشكل يبقى مجبوراً للقول »لا مشهود إلا الله« والذي هو حكم الذين يسيرون في نهج وحدة الوجود. وبالنسبة له إن هذين الرأيين، الذي يرى كل واحد منهما انه يطالع الكائنات بشكل حقيقي، وهي تختلف مع تعاليم القران(٢٤).

وإذا تناولنا مبدأ وجوب فهم الشئ عند النورسي بالمفهوم الوجودي »المعنى الحرفيَ« ، نكون قد توصلنا الى نقطة تسليم الحقيقة التي بينها القرآن له، يعني ان كل شئ موجود في الكائنات له وجود حقيقي، وهي تقوم بوظيفة المرآة التي تظهر تجليات صفات وأسماء الله الحسنى بالمعنى المشخص.

وإذا كانت وحدة الوجود تعتبر أعلى مقام لمنتسيبي هذه المدرسة، إلا انها عند النورسي تمثل ادنى مرتبة(٢٥) وذلك لأن هذا الرأي يرجع الموجودات الى مستوى الخيال المجرد؛ وأثناء القيام بذلك ، فإن تجليات جميع صفات واسماء الله - وبشكل يخالف الحقائق التي اعطت كدرس في القرآن وسنة الرسول ﷺ وينزلها الى حقائق على مستوى الظل والمثال. وبشكل واضح، انه يوجب مجرى تظاهر وتجلي يوافق الفاعليات التي تقتضي جميع الحقائق والافعال لأسماء ذات واجب الوجود مثل الرحمن، والرزاق، والخالق. وجميع هذه الاسماء موجودة وحقيقية. والي جانب ذلك ، فان الصحابة وائمة أهل البيت وخيرة العلماء الذين هم من نسل الرسول بينوا باتفاق ان »حقيقة الاشياء ثابتة« وأن »لله تجليات بالصورة الحقيقية لجميع اسماءه«(٢٦) وبذلك قووا هذه الحقيقة وحكموها.

وإلى جانب ذلك يقوم النورسي بالتنبيه انه يجب وضع الخاصية التالية في العقل: بما ان جميع الموجودات في الكائنات له وجود حقيقي، فإن وجودها ظل ضعيف جداً بالنسبة لوجود واجب الوجود، وبلا قرار، ومظلم؛ لكنه ليس خيالاً ولا وهماً والله يعطيهم الوجود باسمه الخالق، ويديم هذا الوجود(٢٧).

والى جانب ذلك، إن الله عز وجل والذي هو فوق الادراك البشري بشكل مطلق وقطعي ، ولا يمكن تشبيهه بالموجودات التي تشاهد بالعين او لا تشاهد. وعلاقته بالموجودات هي علاقة الخالق بخلقه وقد تناول الاسلام العلاقة بين الخالق والمخلوقات، وكما بين النورسي بمهارة فائقة، انها تستند على ستة اسس، والايمان يوجب وجود كل موجود ممكن. وهذه الاسس الايمانية لا يمكن ان تستند على الخيال او الموجودات الخيالية. لذلك على كل شخص غرق في وحدة الوجود او وحدة الشهود، يعني انه يجب على أهل وحدة الوجود او وحدة الشهود الذين هم في حالة الوجد ان يعودوا من عالم الاستغراق والسكر الى عالم الصحو والاعتدال الذي نعيش فيه ويتركوا حالة الوجد التي كانوا فيها، والا فإنه من الممكن ان يبلغوا الى انكار الخالق(٢٨) ولهذا السبب فإن النورسي يغير عبارة وحدة الوجود »كل شئ هو Heme Ost« بشكل دقيق وعناية فائقة الى »كل شئ منه Heme Ezost«(٢٩).

إن تقييم النورسي حول وحدة الوجود يأخذ شكلاً لطيفاً ودقيقاً في تعليقه على آراء الصوفيين الذين غرقوا في وحدة الوجود. وان وحدة الوجود بالنسبة للنورسي هي بلا شك طريق غامض وحالة مبهمة. لكنها ناقصة، وأحياناً خطيرة ومهلكة. ورغم ذلك إن الذين يصلون الى هذه الحالة لا يريدون ترك الجذبة والذوق الذين يصلون اليه، بل العكس فإنهم يدعون انه اعلى مرتبة وانهم على حق في البقاء فيها. وهؤلاء الناس ، هم مثل سائر الصوفيين والاولياء، أهل حق وحقيقة، ويشهدون الاسرار الدقيقة والحقائق اللطيفة وخاصة في حالة الاستغراق والسكر. ويدعي النورسي انهم طالما بقوا في هذه الحالة فإنهم لن

يستطيعوا تفسير الأشياء التي يشاهدونها في كشفياتهم. مع العلم ان الاصفياء الذين يوجدون في مرتبة اعلى ولا تتطلب الاستغراق والسكر يسيطرون على أنفسهم باستمرار، ويعرفون بشكل جيد ماذا واين وبأى معنى يجب استخدام الشيئ(٣٠). ويقوم النورسي بشرح هاتين الحالتين بمثال الراعيين؛ الراعي النائم والراعي اليقظ، ويوضح الفرق بين الحالتين . حيث ان الراعي اليقظ يستطيع تفسير رؤيا الآخر بشكل مطابق للحقيقة تماماً، وذلك بعكس النائم الذي لا يقتدر على التفريق بين العالم المادي والعالم المثالي (٣١) وبنفس الشكل إن أهل وحدة الوجود عندما يكونون في حالة الاستغراق يشاهدون أمثلة لطيفة كثيرة في عالم المثال الذي يشبه العالم المادي، وعندما يفيق من حالة السكر والاستغراق، يمكن ان يذكرما شاهده في حالة الاستغراق السابقة كما هو هناك، وحتى انه يمكن ان يكتبه ايضاً. والى جانب ذلك، وبسبب نقصهم في نقطة تحقيق التوازن بين هذين العالمين، فإنهم يخلطون بين موجودات العالم المادي وامثلة العالم المعنوي. لهذا السبب فإن النورسي يرى ان مرتبة الشهود هي دون مراتب الايمان بكثير. واذا اردنا الحديث بشكل واضح، فإن استكشفات اهل الشهود ومشاهداتهم واذواقهم بعيدة جداً عن الاحكام المتعلقة بالحقائق الايمانية للاصفياء الذين هم ورثة الانبياء، ويستندون على القرآن والوحي، ولا يمكن ان يصلوا اليهم. وباختصار فإنه يجب ان توزن جميع الحالات الغامضة والكشفيات والاذواق والمشاهدات بميزان السنة والقرآن.(٣٢)

وفي النتيجة نستطيع ان نقول ان مفهوم النورسي للتصوف وتقييمه بشكل خاص لوحدة الوجود هو رأي جديد، وانه استلهم من لب القرآن وروحه، ونستطيع ان نسرد حكماً بأنه تناوله داخل فكر احمد سرهندي وامثاله من المجددين واعطاه مفهوماً جديداً. والى جانب ذلك لم يكن هدفه كما فعل الذين سبقوه - تأسيس نظرية صوفية خاصة به- لذلك فإن أفكاره كانت تختلف من الطراز الذي ألفناه عن الكتاب الصوفيين، وهو تناول الموضوع من اثر معين، بل العكس فإنه عرض أفكاره في أماكن مختلفة في جميع آثاره . والى جانب هذا التقصير، فإن قيامه بتعيين القرآن والسنة كحجر اساس للمكان الحقيقي للطرق الصوفية،وقوله بأن الموجودات ما سوى الله ليست خيالية ووهمية، واعطاءها مكانتها الحقيقة جدير بالتقدير، ويجب معرفة قيمته ، وهو سلوك يقف امامنا بوضوح.

الهوامش

(١) المكتوبات/ ٢٦

(٢)نغسه

(٣)المكتوبات، / ٤٥٩.

(٤)المكتوبات، / ٤٤٣

(٥)لمكتوبات، / ٥٧٣

(٦)المكتوبات، / ٤٤٥

(٧) الكلمات / ٥٧٣

(٨)المكتوبات، / ٤٤٥.

(٩)المكتوبات، / ٤٤٦

(١٠)المكتوبات، / ٤١.

(١١)نفس المصدر

(١٢)Letters، / ٨٥.

(١٣)يبين في محكمه اسكي شهير خلال مرافعته انه لم ينو إعطاء »تربية صوفية«، إلا انه يبين بوضوح انه يهدف تعليم الحقائق.

شكران وحيدة، The Auther of the Riale-i Nur بديع الزمان سعيد النورسي، إسطنبول: دار سوزلر للنشر، ١٩٩٢م، / ٢٤٠.

(١٤)المكتوبات، / ٢٠

(١٥)سورة النجم، آية ٣٢

(١٦)سورة الفرقان، آية: ٤٣، سورة الجاثية، آية : ٢٣

(١٧)سورة الحشر، آية ١٩

(١٨)سورة النساء، آية ٧٩

(١٩) الكلمات/٥٦٠

(٢٠)سورة القصص، آية: ٨٨

(٢١)من اجل فصل الأشياء الى وجهتين يشبه ذلك بالاستناد الى نفس الآية، انظر الغزالي، مشكاة الانوار تحرير، ابو الاعلى عفيفي، القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٤، / ٥٥-٥٦

(٢٢) هذا الفكر يقبل الانسان بأنه »المدار الاصلي لتجلي الله في الكائنات«، والذي قاله النورسي هنا يوصل الى ما أعلنه ابن عربي بشكل بليغ »الانسان خليفة الله، حديث صورة، ازلي اصلا«. »من اجل المزيد من التفصيلات انظر ابن عربي، فصوص الحكم، تحرير ابو الاعلى عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٤٦م، ص ٥٠ وغيرها. من اجل الترجمة الانجليزية انظر The Bezels of Wisdomترجمة R. W.j.Austin، نيويورك مطبعة Paulist1980م، / ٥١ وغيره.

(٢٣) المكتوبات، / ٤٦٠.

(٢٤) نفس المصدر، / ٤٦١

(٢٥) هذا الرأى هو رأي احمد سرهندي الذي يعد من الأساتذة المعنويين للنورسي، ورغم انه يحترم ابن عربي كثيراً إلا انه ينتقد مذهب وحدة الوجود بشدة. وقد بين السرهندي انه مؤسس مذهب وحدة الشهود، والذي فصل نفسه عن علاء الدولة السيمناني الذي اتهم مبدأ وحدة الوجود لابن عربي، وقال ان قول ابن عربي »هو كل شى« هي شطحات قيلت في حالة الوجد، أنه يجب ان الا يُعاب بسبب هذا القول، وأجرى تعليقات ايجابية حول محي الدين ابن عربي. من أجل التفصيلات إنظروا: J.G.J. ter Haur
Follower and heir of the Prophet: Saykh Ahmad Sirhindi (1564-1624) as mystic, Leiden:Het Oosters Instststnt, 1992./ ١١٨-١٣٦.

(٢٦)المكتوبات، / ٥٨

(٢٧)نفس المصدر السابق

(٢٨)نفس المصدر السابق »طبعة دار سوزلر للنشر« / ٧٦.

(٢٩)نفس المصدر السابق، / ٧٧

(٣٠)نفس المصدر السابق، / ٧٦

(٣١)نفس المصدر السابق، / ٧٥.

(٣٢)نفس المصدر السابق، / ٧٦.